

الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن أحمد الدارقطني وآثاره العلمية 306-385 هـ

أ. سليمان عبد القادر
جامعة وهران

هو الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله الدارقطني البغدادي، ودار القطن، بفتح الدال وسكون الألف وفتح الراء وسكون الطاء المهملة وفي آخرها نون، محلة، كانت ببغداد من نهر طابق بالجانب الغربي بين الكرخ ونهر عيسى بن علي خربت الساعة.

ولد سنة ست وثلاثمائة وقيل سنة خمس وثلاثمائة، ونقل الخطيب القولين، ولكنه صدر كلامه بالقول الأول، ويرجح هذا القول تصريح الدارقطني نفسه به حيث قال: مات أبو العباس أحمد بن محمد بن شريح القاضي الفقيه سنة ست وثلاثمائة. وولدت في هذه السنة.

طلبه للعلم:

كان والد الدارقطني رجل علم ومن المحدثين الثقات، فلا بد أن يحرص على تعليم ولده وهو صغير. كما أنه بدأ الكتابة وهو صبي. فقد قال عن نفسه: كتبت في أول سنة خمس عشرة وثلاثمائة وكان يحضر مجلس البغوي منذ نعومة أظافره. قال يوسف القواس: كنا نمر إلى البغوي والدارقطني صبي يمشي خلفنا بيده رغيص عليه كامخ.

وقال الذهبي: وسمع وهو صبي من أبي القاسم البغوي ويحيى بن محمد بن صاعد وأبي بكر بن أبي داود، والذي يظهر لنا ونحن نقرأ حياة الدارقطني أنه حفظ القرآن وهو صغير. فقد قال عن نفسه: كنت أنا والكتاني نسمع الحديث فكانوا يقولون: يخرج الكتاني محدث البلد، ويخرج الدارقطني مقرئ البلد، فخرجت أنا محدثا والكتاني مقرئاً أضف إلى ذلك أن من عادة المسلمين أنهم كانوا يحفظون القرآن الكريم لأبنائهم وهم في مرحلة الطفولة.

رحلاته العلمية:

بعد أن سمع الدارقطني من شيوخ بلده ارتحل إلى البصرة والكوفة وإلى غير ذلك من مدن العراق التي كانت مركزاً من مراكز العلم والعلماء، فقد رحل إلى البصرة في حدود العشرين وثلاثمائة، كما أنه رحل إلى الكوفة للسمع من الحافظ أبي عبد الله محمد بن القاسم بن زكريا الكوفي السوداني. قال الدارقطني: كتبت ببغداد من أحاديث السوداني. ثم مضيت إلى الكوفة لأسمع منه، ورحلت إلى الشام ومصر والحجاز؛ قال الحاكم: دخل الدارقطني الشام والحجاز، قال الحاكم: دخل الدارقطني الشام ومصر علي كبر السن وحج واستفاد وأفاد ومصنفاته يطول ذكرها.

رحلته إلى مصر:

ومن أبرز رحلات الدارقطني رحلته إلى مصر. إذ دارت حولها شبهات وكان لها أثر علمي في أهل مصر. وبيان ذلك أن الوزير ابن حترابة أراد أن يصنف مسنداً فخرج أبو الحسن إليه وأقام عنده مدة يصنف له المسند، وحصل له من جهته مال كثير. وقد حدد لنا الدارقطني وقت دخوله مصر فقال: "دخلت مصر سنة سبع وخمسين"، يعني وثلاثمائة. وقد لام الياضي الدارقطني لارتحاله إلى مصر وأخذه المال من الوزير ابن حترابة فقال: "فإنه وإن كان ظاهره كما قالوا المساعدة له في تخريج المسند المذكور، قلت: لا أرى مثل هذا لا نقاً بأهل العلم ولا بأهل الدين، نعم لو كانت مثل هذه المساعدة (لبعض) أهل العلم والدين ولا يشوبها شيء من أمور الدنيا، كان حسناً منه وفضلاً وحرصاً على نشر العلم والمساعدة في الخير".

وقد دافع الذهبي عن الدارقطني في ذلك بعد أن أورد حكاية تدل على أن الدارقطني لم يكن في حالة ميسرة من العيش، ولم يكن له نصيب وافر من المال؛ قال أبو الحسن العتيقي: حضرت أبا الحسن وجاءه أبو الحسين البيضاوي بغريب ليقرأ له شيئاً فامتنع واعتل ببعض العلل فقال: هذا غريب، وسأله أن يملي عليه أحاديث فأملى عليه أبو الحسن من حفظه، مجلساً تزيد أحاديثه على العشرين حديثاً من جميعها (نعم الهدية أمام

الحاجة)، قال: فانصرف الرجل ثم جاءه بعد، وقد أهدى له شيئا فقربقه، وأملى عليه من حفظه بضعة عشر حديثا متون جميعها (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه).

ونذكر أن حترابة لم يكن وزيرا وصاحب سلطان وجاه فقط إنما هو عالم كبير ورجل عادل بكل نفسه للعلم والعلماء فرحلة الدارقطني له لمساعدته إنما هي رحلة لعالم من العلماء مشهود له بالتقوى والصلاح وهذا أمر لا يلام عليه الدارقطني خاصة وأنه لم يقصر نفسه وعلمه على ابن حترابة بل نشر علمه بين طلابه واستفاد منه الكثي وتأثروا به وعرفوا منزلته وفضله. وكان من أبرز تلاميذه الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي، قال منصور بن علي الطرطوسي: "لما أراد الدارقطني الخروج من عندنا من مصر، خرجنا نودعه وبكى، فقال لنا: تبكون وعندكم عبد الغني بن سعيد وفيه الخلف"، وهكذا غادر الدارقطني مصر تاركا بعده تلميذه عبد الغني بن سعيد ليتم رسالته في أهل مصر.⁽¹⁾ طائفة من شيوخ الدارقطني و تلاميذه:

كان الدارقطني عالما حافضا فقيها على مذهب الشافعي، أخذ العلم عن:

1- أبي إسحاق إبراهيم بن حماد بن إسحاق بن زيد بن درهم الأزدي، مولى الجربير بن حازم، سمع أحمد بن عبيد الله العنبري، وعلي بن مسلم الطوسي. وروى عنه القاضي أبو الحسن الجراحي، وأبو الحسن الدارقطني، وقال: ثقة فاضل، وقال أيضا: ثقة جبل، توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة (323هـ).⁽²⁾

2- أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد بن موسى بن محمد الهاشمي، حدث عن أبي مصعب بن أبي بكر الزهري، والحسين بن الحسن المروزي. روى عنه الدارقطني وأبو جعفر الكتاني. قال الحسن بن لولو: لم أرى له أصلا صحيحا فتركته، وقال الدارقطن: سمعت ابن أم شيان يقول: رأيت سماعة بالموطأ سماعا قديما صحيحا، وقال أبو الحسن محمد بن صالح الهاشمي: رأيت أصل أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي عن أبي مصعب بن أبي بكر الموطأ سماعة مع أبيه بالخط العتيق الخط الأصل. وقال الذهبي: وهو آخر من روى الموطأ عن أبي مصعب، توفي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (325هـ).⁽³⁾

3- أبي إسحاق إبراهيم بن محمد، ويقال: إبراهيم بن محمد بن علي بن الحسين البزاز، ويعرف بابن بقيقة، حدث عن علي بن المديني والمفضل بن غسان. روى أبو بكر بن شاذان، وأبو الحسن الدارقطني وضعفه، ونقل حمزة السهمي عن الحسن بن علي البصري قوله: ليس بالمرضي. توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة (323هـ). (4)

4- العالم المحدث مسند الوقت أبو بكر بن جعفر بن حمدان بن مالك البغدادي القطيعي. الحنبلي راوي مسند أحمد والزهد والفضائل، سمع محمد بن يونس الكديمي وبشر بن موسى حدث الدارقطني، وقال: ثقة زاهد، سمعت أنه مستجاب الدعوة. وتوفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة (368هـ). (5)

5- أبو الحسين أحمد بن سعيد بن سعد بن وكيل دعلج بن أحمد المعدل، سمع منه أبو الحسن الدارقطني كتاب الضعفاء للنسائي، وكان شيخاً فاضلاً، توفي سنة سبعين وثلاثمائة (370هـ). (6)

وكما كثر شيوخ الدارقطني فقد كثر أيضاً تلاميذه وظهر أثره فيهم. ويعتبر استيعاب تلاميذه أمراً خارج نطاق هذه الدراسة، لذا اكتفيت بذكر طائفة من أشهر تلاميذه. 1- أبو منصور إبراهيم بن الحسين بن حكان الصيرفي المعروف بابن الكرجي، سمع عن أحمد بن عبيد بن إسماعيل الصفار وأبا بكر الشافعي وأبا علي بن الصواف، وهذه الطبقة، وكان قد أكثر الكتاب. وقد حدث الدارقطني عن أبي منصور الكرجي في كتاب (المدبج) حديثاً؛ قال البرقاني: ولم أر مثلاً لأبي منصور، صحبته نحواً من عشرين سنة أدام فيها الصيام، قال: وكان وقت العتمة كل ليلة يصلي أربع ركعات يقرأ فيها سبع القرآن كل ركعة جزءاً ومات قبل الدارقطني بسنين كثيرة. (7)

2- الحافظ أبو مسعود إبراهيم بن محمد الدمشقي سافر الكثير وروى قليلاً على سبيل الذاكرة، روى عن الدارقطني وسمع منه كتاب (الأفراد) وحدث عن أبي الحسن بن لولو الوراق وعبد العزيز بن محمد السقا الوسطي، حدث عنه حمزة السهمي، أبو ذر الهروي. توفي في بغداد سنة إحدى وأربعمائة (401هـ). (8)

الرحمن الرحيم؛ آمين. [تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين] . سورة هود / 49.

الهوامش:

- 1- راجع ترجمة الحافظ في: تاريخ بغداد (34/12)، والمنظم (183/7)، والأنساب (273/5)، ومعجم البلدان (422/2)، واللباب (405/1)، ووفيات الأعيان (297/3)، والبداية والنهاية (317/11)، والسير للذهبي (449/16)، وتذكرة الحفاظ (3/)، ومعرفة القراء الكبار (281/1)، والشذرات (116/3)، وغاية النهاية في طبقات القراء (588/1)، وطبقات الشافعية الكبرى (62/3)، والتقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (410/1-412)، وطبقات الشافعية، لابن هداية الله (102/1)، وبقات الحفاظ (393/1-395)، والنجوم الزاهرة (172/4).
- 2- تاريخ بغداد (61/6-62).
- 3- تاريخ بغداد (136/6)، والمنظم (226/6).
- 4- تاريخ بغداد (159، 158/6).
- 5- تاريخ بغداد (73، 74/4)، وسير الأعلام (395-394/3/10).
- 6- تاريخ بغداد (173-172/4).
- 7- تاريخ بغداد (60-59/6).
- 8- تاريخ بغداد (173-172/6).
- 9- سير أعلام النبلاء (19/1/11).
- 10- تاريخ بغداد (379/4).
- 11- تاريخ بغداد (368/4)، ووفيات الأعيان (55/1)، وطبقات الشافعية (61/4).
- 12- تاريخ بغداد (141/11)، وفهرسة ابن خير (210/1).
- 13- تذكرة الحفاظ (1047/3).
- 14- تاريخ بغداد (148/2)، وتذكرة الحفاظ (1046/3)، وطبقات الشافعية الكبرى (143/4).
- 15- تاريخ بغداد (352/1)، وتذكرة الحفاظ (1053/3)، والشذرات (196/3).
- 16- كشف الظنون (1007/2).
- 17- معجم سر كيس (857/1).
- 18- كشف الظنون (1637/2).
- 19- كشف الظنون (1208/2).
- 20- كشف الظنون (1449/2).
- 21- كشف الظنون (1739/2).
- 22- معجم المخطوطات، المطبوعة (82/3).
- 23- فهرسة ابن خير (470/1).

24-فتح المغيٲ، السخاوي (205/1)

25-كشف الظنون (55/1) .

26-فهرسة ابن خير (481/1) .

27-طبقات الفقهاء للشافعية (103/1-104) .

28-فهرسة ابن خير (5231/) .

29-تدريب الراوي (336/1).